القصيدة التي ألقيت بين يدي جلالة الملك في ليلة المولد النبوي
بمناسبة تدشين مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء

المَعْلَمَةُ

بَلغتَ بِـــالعَـــزْمِ مَـــالا تَبْلَـغُ الهِمَمُ
وَشِـــدتَ مَـالَـمْ تُشَيـد مِثْـــلَـــهُ الأمَمُ
هَـــذَا البِنَـــاءُ الـــذِي أعْلَيْـتَ شَـــامِخَـــهُ
قَـدْ غَضَّ طَـرْفَيْـهِ مِـنْ إجْـلاَلِـهِ الهَـرَمُ !
شَتَـــانَ مَن شَيَّـدُوا لِلْمَـــوْتِ أضْـرِحَـــةً
وَمَـنْ بِنَـــــايَتُهُم قُـــــرْبَىٰ وَمُغْتَنَـمُ
دَعَـوْتَ جِـــنّ سُـــلَـــيْمَـــانٍ لِتَـــرْفَعَـهُ
فَبَـــادَرَتْ نَحْـــوَكَ الأمْـــلاَكُ تَـــزْدَحِمُ !
عَبّأتَ فِيـــهِ مِنَ الطَّـــاقَـــاتِ أمْهَـــرَهَـــا
وَدَعَّـمَ العِلْمَ فِـي إرْسَـــــــائِهِ القَلَـمُ !
أرْسَيْتَـهُ فَـــوْقَ مَـوْجِ البَحْـــرِ سَـامِقَـــةً
قِبَـــابُـــهُ تَخْتَفِي مِـنْ حَـــوْلِهَـــا القِمَمُ
لَمْ يَشْهَـدِ البَحْـرُ عِمْـــلاَقـاً بِشَـــاطِئِـهِ
لَـهُ مِـنَ المَـاء – يَجْـرِي تَحْتَـــهُ – دِعَمُ

تَـرْنُـو النُّجُـومُ إلَيْـهِ وَهِيَ خَـاشِعَـةٌ
وَيَنْثَنِي المَـوْجُ عَنْـهُ وَهْـوَ مُحْتَشِمُ !
أنَّـى التَفْتَّ رَأتْ عَيْنَـاكَ رَائِعَـةً
وَحَيْثُمَـا سِـرْتَ فَـالإبْـدَاعُ مُنْتَظِمُ
قَـدْ أبْـرَزَ الفَنُّ فِـي أبْهَـائِهِ تُحَفـاً
رَوَائِعـاً عَـزَّ أنْ يَأتِـي بِهَـا حُلُمُ
تُسَـافِـرُ العَيْنُ فِـي أبْهَـائِهِ سَعَـةً
كَـأنَّـهُ فَلَـكٌ رُصَّـتْ بِـهِ نُجُـمُ
ويَسْـرَحُ الفِكْـرِ مَأخُـوذاً بِـرَوْعَتِـهِ
فِي رِحْلَـةٍ لَمْ يَسِـر فِي مِثْلِهَـا قَـدَمُ !
كَأنّـهُ قِطَعٌ مِنْ لُـؤلُـؤ نُظِمَت
أوْ هَيْكَلٌ شَيـدَتْ أبْـرَاجَـهُ إرَمُ !

* ● *

تَـزْهُـو مَنَـارَتُـهُ العَـذْرَاءُ فِي شَمَمٍ
عِمْـلاَقَـةً بِسِمَـاتِ الفَـنِّ تَتّسِمُ
كَأنَّهَـا سُلَّـمٌ يَـرْقَىٰ الأذَانُ بِـهِ
تُقَبِّـلُ النَّجْمَ فِـي الجَـوْزا وَتَسْتَلِـمُ
وَاللَّـهُ أكْبَـرُ فِي أجْـوَائِهَـا عَبَقٌ
مِلْء المَجَـرَّاتِ فِـي أسْمَـاعِهَـا نَغَمُ

كَمْ سَـــامِـعٍ لأذَانِ اللّـــهِ تَـــرْفَعُـــهُ
لُبَى، وَكَـــانَ بِـــهِ فِيمَـــا مَضَى صَمَمُ !
وَكَمْ قُلُـــوبٍ مَـــرِيضَـــاتٍ بِسَـــاحَتِـــهِ
صَلَّتْ فَـــزَايَلَهَـــا الإرْهَـــاقُ وَالسّقَمُ !
تَسْـــرِي بِـــهِ نَفَحَـاتُ اللّـــهِ مُـــرْسَلَـــةً
لِمَنْ أتَـىٰ خَـــاشِعـــاً لِلْخَيْـــرِ يَغْتَنِمُ
وَالمَـــاءُ فِيـــهِ رَحِيـقٌ سَـــالَ كَـــوْثَـــرُه
وَمَنْهَلٌ يُـــرْتَـــوَى مِـنْ فِيْضِـــهِ شَبِمُ

* ● *

وَجَلَّ مِحْـــرَابُـــهُ فِي عَيْنِ نَـــاظِـــرِهِ
كَـالْقَلْـبِ فِي صَـدْرِهِ يَجْـرِي إلَيْـهِ دَمُ !
يَكَـــادُ يثْنِـي عَلَى الأيْـــدِي التِـي صَنَعَت
جَمَـــالَـــهُ وَهْـــوَ مَـزْهُـــوٌ بِمَـا رَسَمُـــوا
أنَـــامِـلٌ أبْـــدَعت فِي كُـلِّ رَائِعَـــةٍ
بِـــاللّـــهِ تُبْـــدَا وَبِـــالقُـــرْآنِ تُخْتَتَمُ
وَيَـــالأقْـــوَاسِـــهِ وَالفَنّ ألْبَسَهَـــا
مَنَ السَّنَـــا حُلَـــلاً لَمْ تُكْسَهَـــا رِيَمُ
تَـرْتَـــدُّ عَنْ حُسْنِـهِ الأبْصَـارُ خَـاسِيئَـةً
وَلَا تَكَـــادُ تُـــوفِـي وَصْفَـــهُ الكَلِمُ

فَبَـارَكَ اللَّـهُ فِي قَـوْمِي عَبَـاقِـرَةً
بَـاهَىٰ الـزَّمَـانُ بِهِم مَنْ كَـانَ قَبْلَهُمُ
صبُـوا مَـوَاهِبَهُم فِيـهِ فَغَـاصَ بِهَـا
فِي مَـوْجَـةٍ مِن سَنىً شَـلاَّلها عَـرِمُ

* ● *

رَأَيْتُ فِـي آيـهِ الفَـرْدَوْسَ ثَـانِيَـةً
وَمَجْـدَ غَـرْنَـاطَـةٍ تَـزْهُـو بِهَـا الأُطُمُ
جَـلاَلُـهُ نَفَحَـاتٌ مِـنْ جَـلاَلَتهَـا
وَمِنْ نَسَـائِمهَـا تُسْتَـرْوَحُ النّسَمُ
غَـرْنَـاطَـةٌ فِيـهِ عَـادَتْ بَعْـدَ غَيْبَتِهَـا
كَأَنَّهَـا مِنْ عَـوَادِي الـدّهْـرِ تَنْتَقِمُ !
وَنَحْنُ مَـنْ وَرِثُـوا أَمْجَـادَ أَنْـدَلُسٍ
فَنـاً وَعِلْمـاً وَلَمْ يَقْعُـد بِنَـا عُقُم !
فِي كُـلِّ دَارٍ لَنَـا فَـنٌّ بِقُـرْطُبَـةٍ
لَمْ يُبْلِـهِ وَهْـوَ فِي أَحْضَـانِنَـا قِـدَمُ !
وَالنَّـاسُ بَـانِـي بِنَـاء أَوْ مُتَممُـهُ
وَآخَـرُونَ إِذَا مَـا شَيَّـدُوا هَـدَمُـوا !

* ● *

حَجّتْ إلَيْـهِ وُفُـودُ الشّعْـبِ ظَـامِئَـةً
كَأنَّـــهُ البَيْتُ مَعْمُـــوراً أوْ الحَـــرَمُ !
لَسَـوْفَ يَبْقَـى مَـدَىٰ الأحْقَـابِ مُعْجِـزَةً
عِمْـلاَقَـةً كُلّ صَـرْحٍ حَـوْلَهَـا قَـزَمُ !
وَمَـا المَـآثُـر عُمْـرانـاً وَلا تَـرَفـاً
وَلاَ هَيَـــاكِلَ نُعْلِيهَـــا فَتُحْتَـــرَمُ
وَإنَّمَـــا هِيَ لِـــلأجْيَـــالِ مَـــدْرَسَـــةٌ
وَنَـــاطِقَـــاتٌ بِمَـــا لاَتُفْصِـحُ الكَلِمَ

* ● *

أبَـا المَجِيـدَيْنِ جَـازَى اللَّـهُ سَعْيِكَ عَنْ
شَعْبٍ أصِيـلٍ بِهَـدْيِ اللَّـــهِ يَلْتَـــزِمُ
وَلَمْ تَـــزَلْ تَـــزْدَهِي فِيـــهِ صَنَـــائِعَكُم
كَـأنَّهَـــا وَهْيَ فِـي أرْجَـــائِهِ دِيَـمُ
إذَا تَأوَّه مِـنْ جُـــرْحٍ سَهِـــرتَ لَـــهُ
وَمَـسَّ جَنْبَـكَ مِـن آلامِـــــــهِ ألَـمُ !
مَـا انْقَـادَ يَـوْمـاً وَلَمْ يَـرْكَعَ لِطَـاغِيَـةٍ
وَلاَ انْحَنَىٰ رَأسُـهُ يَـوْمـاً لِمَنْ ظَلَمُـوا
شَمَـــائِلٌ هِيَ فِيـــهِ مِنْ شَمَـــائِلَكُم
أصِيلَـــةٌ هِيَ فِيمَـــا بَيْنَكُم قِسَـمٌ

لَمَّـا دَعَـوْتَ إلَى الحُسْنَـى اسْتَجَـاب لَهَـا
سَمحـاً وَمن طَبْعِـهِ الإيثَـارُ وَالكَـرَمُ !
وَلَيْسَ يَغْضَـبُ مِنْ جُـوعٍ وَلاَ عَـوَزٍ
كَمَـا يُـرىَ غَـاضِبـاً إنْ دِيسَتِ الحُـرَمُ !
وَمَـا دَعَـوتَ إلَى جُلَـىٰ وَمَكْـرُمَـةٍ
إلاَّ وَلَبّـى، وَكَـانَـتْ لاَؤُه نَعَـمُ !
كبـرتُ لَمَـا رَأتْ عَيْنِـي سَـوَاعِـدَهُ
تَبْنِي بِـإيمَـانِهَـا مَـا لَيْسَ يَنْهَـدِمُ
عَـودتَـهُ حُبّ هَـذِي الأرْضُ مُـذْ حَملَت
يَـدَاكَ فَـأسَ بِنَـاء لَيْسَ ينثَلِـمُ
فَسَـارَ خَلْفَكَ مُـؤتمـاً بِـرَائِدِهِ
وَرَائِد القَـوْم عَـدْلٌ لَيْسَ يُتّهَـمُ !
كَيَـوْمَ زَلْـزَلَهَـا تَحْتَ البُغَـاةِ وَقَـدْ
نَفَـوا أبَـاكَ فَلَم تَخْمُـدُ لَـهُ حُمَمُ
وَشَنَّهَـا ثَـوْرَةً حَمْـرَاءَ جَـامِحَـةً
كَـأنَّهَـا وَقَـدِ احتَفَّـت بِهِم رُجُـمُ
شُـدِهْتُ لَمَـا رَأت عَيْنِـي مَـوَاكِبَـهُ
فِي زَحْفِهَـا لِحُـدُودِ الـوَهْـمِ تَقْتَحِمُ
رَأيْتُ شَعْبـاً تَحَـدّى لَيْسَ فِي يَـدِهِ
إلاَّ المَصَـاحِفُ يَـزْهُـو بَيْنَهَـا العَلَمُ

كَأنَّمَـــا ابْنُ زَيَـــادٍ عَـــادَ ثَـــانِيَـــةً
وَالسُّفْنُ فِي الرّمْلِ لاَ فِي البَحْرِ تَضْطَرِمُ !
حَـرَّرْتَ بِـالعَقْلِ لاَ بِـالسّيْفِ مَـا عجـزت
عَـنْ مِثْلِـــــــهِ أُمَـمٌ لِلسّيْـفِ تَحْتَكِـمُ
عَـــادَت بِحِكْمَتِكَ الصّحْـــرَاءُ وَاحْتَضَنَتْ
أبْنَـاءهَا. وَارْتَـدَىٰ بِـالخِزْيِ مَنْ وَهِمُـو !
كَأنَّمَـــا كُنْتَ إعْصَـــاراً أطَـــاحَ بِهم
أوْ صَيْحَـةً فَـوْقَهُم مِنْ هَوْلِهَـا وَجِمُـوا !
لَمستَهَـا بِعَصَـا مُـوسَـى فَمَـا لَبِثت
أنْ اسْتَحَـالتَ رِيَـاضـاً نَشْـرُهَـا عَمَمُ
وَكُنْتَ بَـــراً بِـأبْنَـــاء مَنَحْتَهُمُـــو
عَفْـــواً وَأرَّقَهُـم مِن زَيْغِهِـم نَـــدَمُ
وَانْجَـابَ عَـنْ أرْضنَـا عَهْـدٌ عَصَفـتَ بِـهِ
كَـالفَجْـرِ تَنْجَـابُ عَنْ إشْـرَاقِـهِ الظلَمُ
وَلَمْ تَـــزَلْ لِلْمَعَـالِي تَـــرْتَقِـي صُعُـداً
وَدَائِمـــــاً أنْـتَ صَبَّ لِلْعُلَـى نَهِـمُ !

* ● *

أبَـــا الأُبَـاةِ أعِـــدْهَـــا سَمْحَـــةً فَبِكُمْ
شَمْلُ العُـــرُوبَـــةِ وَالإسْـــلاَمِ يَلْتَحِمُ

أنْقَذَت بِـالـوَحْـدَةِ الكُبْـرَى مَغَـارِبَنَـا
مِنَ الضّيَـــاعِ فَعَـــادَ الشّمْـلُ يَلْتَئِمُ
وكَيْفَ نَـرْفُـضُ مَـا يُفْضِي لِعِـزَّتِنَـا
وَالـدّيـنُ يَجْمَعُنَـا وَالضّـادُ والـرّحِمُ
وَكَيْفَ نَبْقَى لِـذَاكَ الغَـرْبِ مَـزْرَعَـةً
وَمَـرْتَعـاً يَـرْتَـوِي مِنَّـا وَيَلْتَهِمُ ؟
وَكلّ خُلْـفٍ سَـرَابٌ لاَيُعـوقنَـا
عَن المَسِيـر، وإنْ حَلَّتْ بِنَـا نِقَمُ
وَقَـدْ بَـدَأتَ فَتَمم صَـرحَ وَحْـدَتِنَـا
فَنَحنُ عَـونٌ لِمَـا تَبْنِيـهِ وَالخـدَمُ
وَاطْـرُد عَنِ الـدّينِ مَـا يَغْشَى مَكَـارِمَـهُ
فَـالـدّينُ يُصْلِحُ مَـا لاَ تُصْلِحُ النظُمُ !
وَلاَ تَمُـوتُ مِنَ الفَقْـرِ الشُعُـوبُ وَلاَ
تَنْهَـارُ إلاَّ إذَا مَـا انْهَـارتِ القِيَمُ !
وَمَـا سِـوَى سِبْطِ طَـهَ مَنْ يُـرَادُ لَهَـا
وَمَـا سِـوَاهِ لِهَـذَا الـدينِ مُعْتَصَمُ
مِنْ كُلّ مُنْتَحِـلٍ بِـالـدينِ مُـرْتَـزِقٍ
كَـأنَّ آرَاءَهُ فِـي دِينِنَـا الحكَـمُ !
وَالـدينُ يُسْـرٌ وَشَـرْعُ اللَّـهِ وَاضِحَـةٌ
أهْـدَافُـهُ وَالمُغَـالِي كَـاذِبٌ خَصِمُ

وَلَيْسَ لِلّـــهِ فِي الإسْـــلاَم رَهْبَنَـــةٌ

وَلاَ كَـرَاسِي اعتِـرَاف فَـوْقَهَـا صَنَمُ !

وَإنَّمَـا هُـوَ نُـورُ اللّـهِ حَيْثُ سَـرَى

صَحَـابِـهِ العَقْـلُ وَانْحَلَّتْ بِـهِ الأزَمُ

* ● *

سَـأَلْتُ رَبِـيَ أنْ تَحْيَـا إلَى زَمَـنٍ

تَـرَى زُهُـورَكَ فِيـهِ وَهْـيَ تَبْتَسِمُ !

وَمَغْـرِبِي جَنَّـةٌ خَضْـرَاءُ وَارِفَـةٌ

يَمُـوتُ حَـاسِـدهَـا غَيْظاً وَيَحْتَـدِمُ !

وَأنْتَ قَـائِدُنَـا فِـي كُلِّ مَلْحَمَـةٍ

مَتَى رَأتْكَ عَـوَادِي الـدّهْـرِ تَنْهَـزِمُ !

يَهنِيكَ شَعْبٌ غَـدا فِي حُبِـه مَثَـلاً

عَلَى الـوَفَـاء لَكُم أبْنَـاؤهُ فُطِمُـوا

قَـدْ هَـابَكَ الشِعْـرُ وَاسْتَعْصَت شَـوَارِدهُ

وَمَـالَهَـا إنْ أبَتْ تَـرْوِيضَهَـا لُجُمُ

كَـذَاكَ كُـلّ عَظِيمٍ لاَيُحِيـطُ بِـهِ

شعـرٌ، وَلَـوْ أنَّ كُلّ المُعْجَبِيـنَ فَمُ !

وَعَـــاشَ شِبْـــلاَكَ فِي عِـــزٍ وَفِي دعـــةٍ

لآلِئـــــاً فِي عِقُـــــودِ المَجْـــــدِ تَنْتَظِمُ

اليَـــوْمَ يَهْنَـــا بِمَـــا شَيَّـــدتَ وَالِـــدكم

وَيَسْأَلُ اللّـــــهَ أنْ تُـــزْجَىٰ لَـكَ النِّعَمُ

يَـامَـــوْلِـد النُّـــورِ ! فِي مِيـــلاَدِ مَعْلَمَـةٍ

أنْتَ الجَـــلاَلُ ! وَهَـذَا المَجْـــدُ وَالعظَم !!